الشيخ الشبيبي معلمة من معالم العراق

بقلـــم : الاستاذ عبد الهادى التازى
عضو المجمع العلمى العراقى ببغداد

العراق بما يحتضنه من أسر نبيلة وبيوت كريمة ، وبما يضمه من أطلال من الحضارة باقية ، وملامح من الماضى زاهية ، يسهم فى بناء مجتمعنا أيما اسهام ، ويعزز من كياننا أيما تعزيز .

وبيت الشبيبى يعتبر من أشهر البيوتات فى العراق التى تنتمى الى القبيلة العربية المشهورة : بنى أسد ، وقد عرف هذا البيت بعلمائه وشعرائه ورجال الاعمال والخير فيه ، والشيخ محمد رضا الشبيبى يعد من أبرز الشخصيات المحترمة فى هذا البيت الاصيل .

وقد نشأ فى بيئة النجف وترعرع بها وهناك تناول علوم العربية والاصول والبلاغه ، ودرس الدين والفقه والتاريخ فهو خريج «مدرسة النجف» المعروفة برجالها وأقطابها .

والنجف عندنا فى المغرب قد يكون فى نجوة عند بعض الناس ، ولذلك فان من الواجب أن نعرف أن هذا النجف فيه يرقد الامام على كرم الله وجهه ولذلك فهو من قديم ملاذ العلماء والادباء والدارسين ، وهو مهجر رجال الفضل والتقى والدين . واعترف بأننى فى كل مرة زرت فيها النجف اكتشفت ناحية جديدة فيه ... وما رأيت بلدة أثرى فيها العلم ، وأيسر فيها العيش ، وأحلى فيها الانس منها فى العتبات المقدسة ... ضمتنى مجالس النجف بافذاذ العلماء وعيون الشعراء ، وقضيت الساعات فى الحديث اليهم فكان حديثهم نعم الحديث وكانت نكتتهم أحلى النكت .

بلدة القانع بالقرص فما لونت منه طعوم تسطاب !

نعم بلدة القانع بالقرص كما يقول شاعرهم لكنها أيضا بلدة الطعوم المستطابة ... ولذلك فان على ضيوفهم أن يتحملوا انواع التكريم ... ولا بد لضيوفهم أن يتناولوا على موائد النجف أطعمة بنى ساسان !

فى كل فائدة ، وفى كل علم ، وفى كل متعة ... تصدت بهذا التقديم أن نأخذ فكرة عن الوسط الذى نشأ فيه «الشبيبى» ...

ولد بالنجف يوم 6 رمضان 1306 (6-5-1889) وتألق نجمه بين أقرانه وأصدقائه من العرب والعجم على السواء ، وعلى عادة طلبة المعاهد الدينية فقد كان الى جانب دراسته الاسلامية يقوم بنشاط وطنى بل يعتبر ذلك من مكملات الدين ومتمماته ، ولهذا تلمس فى آثاره الكثير من الانتفاضات والانتفاضات ، وفى أعقاب الحرب العالمية الاولى ساهم فى تنظيم عرائض من جميع أنحاء العراق رفعت الى مؤتمر السلام ، وقد أوفد الى سوريا والحجاز بتكليف من صحبه وذلك من اجل توحيد الجهود مع بقية قادة العرب .

وقد أسهم فى الثورة العراقية المشهورة سنة 1920 بل كان من رجالها الاولين وكان معروفا بمناهضته لكل المشروعات والاحلاف التى كان يعتقد أن فيها مساسا بمصالح العراق او تهديدا لكيانه .

* * *

وعندما بلغ خمسا وثلاثين سنة تقلد منصب وزارة التربية الوطنية لاول مرة فى وزارة المرحوم ياسين الهاشمى ، وغادرها بعد حين ولكن ليعود اليها مرة ثانية وثالثة ورابعة وكان آخرها سنة 1947 فى وزارة المرحوم السيد محمد الصدر .

ودخل البرلمان فكان عضوا بمجلس الاعيان ورئيسا له وزعيما للمعارضة أكثر من مرة ! وقد ظل بعد ثورة 14 يوليه 1958 محل احترام من ساسة العراق ومكان شورى لديهم . يرضون مطالبه وينشرون مناقبه ...

* * *

ولم يقطع الشبيبى وهو فى المنصبين : — وزيرا ومعارضا — صلته بالعلم وأهله فظل بيته منتدى

للقاصدين وملتقى للباحثين ، وهكذا فبعد اسهامه فى نادى القلم العراقى انتخب عضوا فى المجمع العلمى العراقى سنة 1948 ، وقد كان انتخب عضوا فى المجمع العلمى بدمشق منذ سنة 1923 كما انتخب عضوا فى مجمع اللغة العربية فى القاهرة سنة 1947 ... واخيرا انتخب رئيسا للمجمع العراقى الجديد بعد الثورة التى أطاحت بنظام عبد الكريم قاسم ... وقد ظل موضع احترام الى أن اختاره الله لجواره اثر سكتة قلبية صباح يوم الجمعة 26 نوفمبر 1965 حيث شيعت جنازته الى النجف فى موكب كتب لرفاقه من اعضاء المجامع الثلاثة أن يحضروه ...

* * *

لقد اتيح لى أن أتعرف شخصيا على الشيخ محمد رضا الشبيبى مساء يوم الثلاثاء سادس يناير 1959 حيث قدمه الى فى معهد الدراسات العالية بالقاهرة المرحوم الاستاذ محمد شفيق غربال وهناك استمعنا اليه فى احدى محاضراته على طلبة قسم الدراسات الادبية واللغوية ... واذكر ان الاسئلة كانت تنهال عليه من عشرات الطلبة واذكر أيضا ان الشيخ الشبيبى كان قوى الاستعداد لتلقى تلك الاسئلة .. وقد كانت فرصة لربط الصلة به فكانت لنا معه «قعدة» بعد انتهاء المحاضرة تبعتها صلات وصلات .

* * *

ثم بعد هذا هيئت له الفرصة لزيارة بلاد المغرب الاقصى وكان ذلك بمناسبة احتفال جامعة القرويين بعيدها المائة بعد الالف . كان ثالث ثلاثة وردوا من العراق الشقيق ارضاء لدعوة وزارة التربية الوطنية وقد تحدث للناس أثناء مقامه بالمغرب عن الاثر الذى تركته جولته فى المغرب ونعت هذه البلاد بأشرف النعوت فسماها «الجوهرة الثمينة» وقارن بين سواد المغرب وسواد العراق ، وأشاد بالمنجزات التى حققها عهد الاستقلال .

وعندما حضرت القاهرة فى اجتماع الدورة 14 للجنة الثقافية لجامعة الدول العربية 17-1-1961 جددت به الصلات اذ كان وصل تلك الديار للاسهام فى اجتماعات مجمع اللغة العربية .

* * *

وعندما حللت العراق صيف 1963 سفيرا للملكة المغربية كان على أن أزور الشيخ فى بيته احياء للعهد وتجديدا لاواصر الصداقة التى جمعت به ، كان بيته مزارة للناس باستمرار وقد كان اليوم (18-6-1963) فيما اذكر فى منتهى الحر بالرغم من المراوح السقفية والمبردات الهوائية ، جلست الى الشيخ بعباءته السوداء ، وقد وضع عمامته جانبا واخذ يتحدث لى عن العراق ، كل شىء عن العراق ... قدم الى كثيرا من الفوائد التى تظل الى الآن نصب عينى ، والشيخ الشبيبى أجدر من يتحدث عن بلاد العراق فانه بحكم مركزه وبحكم المناصب التى تقلدها ، وبحكم التجارب التى مر بها فانه يتحدث اليك حديث بصير خبير ... وهو ولو أنه فى تآليفه المكتوبة مسهب مفيد لكن فى أحاديثه ومجالسه أكثر فائدة واطول نفسا .. ولو ان أحدا سجل عنه ما كان يستطرد به من فوائد وما يعلق به من تعاليق لكان المأثور عنه اضعاف ما هو عليه الآن ..

* * *

واذا كانت الحياة بما تضمه من احداث لها صلة وثيقة بالشخصيات التى عاشت تلك الاحداث فترة من الزمن ، فانه يمكن اعتبار الشيخ الشبيبى من بين أولئك الذين اسهموا فى صنع جزء من مراحل التاريخ العراقى ، وان الظاهرة البارزة فى العراق أن جل ما يصدر عن رجاله وقادته وعلمائه ورؤسائه لا بد أن تجد فيه - بصفة مباشرة او غير مباشرة - أثرا يضع أصابعك على حادثة من تلك الحوادث وها نحن اولاء بجانب بعض آثار الشيخ الشبيبى :

جولة فى شعره

لقد سمعنا باثاره ونحن ما نزال فى الكلية ، نتلقى من الشرق ما يرد عنه من صراخ وأنين يتمثل فيما يكتب وما ينظم من لدن رسل السيف والقلم هناك ، كنا جميعا فى الهم سواء ، اخواننا هنا يتلظون بجحيم الاضطهاد ، واخوتنا فى الشرق يعكسون ما يعيشون فيه من أوصاب وآلام فيما يكتبون ، فنجد فى ذلك السلوى ونطرب لذلك الصدى ... لقد وصلنا من شعره الشىء الكثير وخاصة منه ما كان يهدف لالهاب حماس أو بث شكوى أو ثورة على تقاليد .

نعم اعتدنا ترديده كلما جرت ريح بما لا نشتهى نحن المعذبين الذين نتابع فى كل مكان ، ونطارد فى كل جهة !

وقد عنى الاستاذ الشبيبى منذ بدايته بتسجيل انطباعاته عن الواقع العراقى ، عن المحيط الذى كان يعيشه ، وأحسبه كان لا ينظم الشعر الا عند ما يوضع فى امتحان عاطفى أو يشعر بأزمة ضمير ... كنت أتذكر - وأنا اتجول ديوانه - قول القائل :

يشبـــه الشاعـــر البخـــور فلا ينـــ
شر طيبـــا الا على النـــار يحـــرق

فهو كما يلوح كان يصارع أحيانا شعره ويكابده ، متى أحس بالم أو شعر بسأم ، لقد أنشد هو ذات يوم:

ليس هـــذا الشعر مـــا ترووونـــه
ان هـــذا قـــطـــع مـــن كبـــدى !

وأنشد أيضا :

متى زحمت عـــوادى الدهـــر ركنى
والتنـــى مهـــين الجـــانبـــين
بسطت الى مليـــك الشعر كفـــى
فرد الهـــم منقبض اليديـــن
اذا جـــربت أن اقتـــاد بيتـــا
فأسلس لى طمعـــت بآخـــرين.

وقال أيضـــا :

رعـــى الله القـــريض ونـــاظمـــيه
وحـــق لهـــم رعـــايـــة كـــل راع
فان لهـــم لالسنـــة حـــدادا
أحـــق مـــن الصـــوارم بالدفـــاع
وان لهـــم على الشعب اطـــلاعا
كما اطلـــع المطـــل من اليفـــاع !

ومن فضل الشبيبى على التاريخ انه عزز النضال العراقى بتدوين مراحل ذلك النضال منذ وقت شبابه، ومن تيســـير الشبيبى على الـــذين يحاولون دراسة شخصيته انـــك تستطيع بسهـــولة أن تتعرف عليه ـ أخلاقا وطبعا ـ من خلال ما قال وما نظم ...

يقول فى معرض حديثه عن الاستقلال الذى كانت البلاد العربية تنشده :

مرت بنا الامـــم الطليقـــة واثنت
أخـــرى تعالـــج أسرهـــا ووثـــاقهـــا
هذى الجيـــاد فمن تعاطى شأوهـــا
ياشرق فيك ؟ ومن أراد سباقها ؟
واذا أراد الله افـــلاس أمـــة
حتى تضيـــع أضاعهـــا أخـــلاقها !!

ويقول فى معرض حديثه عن اختلاط الامر بالعراق فى بحر سنة 1912 أيام كان آباؤنا بالمغرب يعيشون على أعصابهم من أهوال الدخلاء ، ونكايات العملاء وتنكـــر الاصـــدقـــاء :

ظننت مشوبا مـــن رأيت مخلصـــا
وخلت مصابا مـــن وجدت سليمـــا
ألا نظـــرة للدارجات عهـــودهـــم
لنشهـــد آدابـــا لهم وعلومـــا ؟

وقال فى معرض حديثه فى بداية حرب 1914 منتقدا شدة انحراف الولاة فى العراق :

ألا مدرك هذى البـــلاد وأهلها
فقد لقيت من جور ساستها جهـــدا !
تفـــرغ أيدينا لتمـــلأ جيبهـــا
وتنهكنا جوعا لتشبعهـــا حمدا !!
شرائـــع سنتها الجماعة غيـــرة
من الفرد ، أشقين الجماعة والفردا !!

وقد سجل حروب العثمانيين مع ايطاليا على ليبيا سنة 1912 وحمل على الحضارة المفترى عليها فقال :

أو ما أتاك ببرقـــة نبأ التـــى
رمت البلاد بمبـــرق وبمرعد ؟
ما ذا يرجى من وراء حضارة
عمى البصير بها وضل المهتدى ؟
وجدت فافقدت النفوس فضائـــلا
خلقت لهـــا فكانهـــا لم توجد !

وقال فى نفس الموضوع من قصيدة أخرى :

هيهات لا يتخلى عن طرابلس
فى الغرب من حرسوها وهى فى الشام
يا قاذفـــين طرابلسا بنـــاترة
وطالبـــين لهـــا تنوير افهـــام
ما خلف الغرب فينا مـــن حضارته
الا بـــواعث ارهـــاق وارغام !

* * *

والشيخ الشبيبى وهو نجفى المولد خصص جانبا من شعره لثورة هذه المدينة التى استطاعت أن تعيش مستقلة عن الادارة المركزية سنتـــين كاملتين أيـــام الاحتلال البريطانى واستهدفت ـ نتيجة لذلك ـ للقتل والنفى والاسر والتعذيب :

يارب مـــن لاناس مـــا لهم أحد ؟
يارب من لرجـــال ما لهـــم رجـــل ؟
وارحمتاه لمن غابوا فما حضـــروا
من الثغور ؟ ومن ساروا فما قفلوا !
دعـــو المظـــالم حاولتم تفشيهـــا
ما للبلاد التى نابت بهـــا قبـــل
قـــد اعتذرنا وقـــد صحت مقالتنا
أخوكم مكره فى الحرب لا بطـــل !

ولنقرأ قصيدته «الباكية» حول احتلال دمشق :

أعياد هـذا الشرق صرن مآتما
لكنهـا لعداتهـا أعيـاد !
الجـو وهـو مقطب متهجم
يبكـي لنـا والأرض وهي جمـاد
لسنا نحد عليك يومـا واحدا
أو ليلـة ، كـل الزمان حـداد
خنا ذمام الفاتحين وعهدهم
مـا هكـذا تستنجب الاولاد
انا بمـا نجنى وهم فيما جنـوا
بئس البنـون ونعمة الاجداد !

ولم يفت الشبيبى أن يلاحظ ان اهتمام الاستعمار بتعبيد الطرق وتمهيد السكك الحديدية لم تكـن الا لتسهيل مواصلاته هو ، وتيسير الاستغلال له هو فـى طول البلاد وعرضها . يذكرنى فى ذلك برأى أبى العباس الناصرى صاحب الاستقصا الذى كان يرى « ان نصب السكة الحديدية عين الضرر وان النصارى أجربوا سائر البلاد فأرادوا أن يجربوا هذا القطر السعيد الذى طهره الله من دنسهم » !! قال يرحمه الله :

مدوا الحديد وما اهتززت لمـده
سكك الحديـد بأرضنـا أصفـاد
طـرق الحديد اذا التوت وتشابكت
شرك بـه شرق العراق يصاد !!
ان الزعامـة سلمت لـزعانـف
فى الشرق قـادوا أهله فانقـادوا
أنظر الى الاعجـاز كيف تصدرت
وعمائـم السادات كيـف تساد !
شر العصور ـ وفى العصور تفاوت
عصر بـه تتقـنع الاوغـاد !!

* * *

ولا بد أن يكون لدجلة والفرات ذكر فى شعـر العراقيين فانهما أى دجلة والفرات يظلان وردا يتردد صباح مساء على لسان كل الذين عاشوا فى العـراق أو انتسبوا اليه ، فانه لا يمكن ان تعبر جانبا الى جانب دون ان تتملى من رؤية المياه المتماوجة على صفحـات النهر .. وقد عرفت الشبيبى فى بيته بمنطقة «الزاوية» على شط دجلة وكان يؤلمه أن لا تستغل طاقات هذين النهرين العظيمين :

أى دمـع يفيض مـن اى مقلـة
لـوقوفى بـين النهـرات ودجله
آه مـا أكثـر الجداول تجرى
فى ربـوع نعيمه ما أقله !!
من ترى حـرم الزلال علينا
وعلى السماكنات فيـه أحلـه ؟
مـا اخـال الخرير والماء الا
صوت حـزن وعبـرة مستهلـه !
أين ذاك العراق ؟ أيـن بنـوه ؟
ليتهـم أبصروا العـراق وأهلـه !
كـان للمجد وجهـة للامانـى
كعبـة للمحامـد الغـر قبلـه
كل يـوم بـين الفريقين حـرب
حملـة تخلع القلـوب فحملـه

ومن قصيدة أخرى فى دجلة :

يا مـاء دجلة عـذبا فى مـوارده
لانت فى كبـد الفلاح يحمـوم
الفقر فيـك مذود وهـو مفتقـر
والبحر منك مجود وهـو محـروم
عجزتـم فحياة المـرء عندكـم
الى السموات تفـويض وتسليم !!

وشعر الشبيبى الى جانب هذا يتناول ميادين أخرى وقد ابلى فى باب الحكم البـلاء الحسن ، وعبر عـن انطباعات كانت وليدة احتكاك مع مشاكل الحياة ووليد مقارعة مع الزمن ، اقرأوا له هذه الابيات :

ويحزننـى أن الاواخـر قصـروا
ولم ينزعوا فى الفضل نزع الاوائـل
ولم يرثوا من ديـدن القوم قبلهـم
سؤال مجيب أو اجـابة سائـل
أرى غربة الانسان شتى صنوفهـا
واعظمها لقيان مـن ليس يشاكل !
وما كـل ربع غص بالناس آهـل
اذا كان من معروفهم غير آهـل !!
أضاع صوابن عامـل غير عالـم
سيسأل عنه عالـم غير عامـل !!
احب الى الديان مـن علم عـالم
اذا هو لـم ينفع به جهل جاهـل
ومن يـدعى ان المـراء فضيلـة
فانى أرى الايمـان رأس الفضائل !
أمـور باسعـاف المقـادير نلتهـا
على حـين أعيـا نيلهـا بالوسائـل
توسط تزد شأنا ففى الكف خمسة
وأطول ما فى الكف وسطى الانامل
ومـا هـالنى كالموت شىء فاننـى
أرى كـل شىء غيره غير هائـل

كان البرايا فى الوجود قوافل
تسير الى الاجداث اثر قوافل
فثمت ركب عاجل غير آجل
وثمت ركب آجل غير عاجل !
عبورك من وادى التقلب رحلة
الى دارك الاخرى فكن خير راحل

وله من قصيدة أخرى :

احدى العجائب عدا ان يثقفنا
قوم ثقافتهم فى أرضنا عجب !!
من معدن الشر ما سنوا وما شرعوا
ومن معانيه ما خطوا وما كتبوا
نسعى ونقعد والاقدار حاكمة
سيان فيها سكون النفس والطلب !!
خلد لنفسك فى العقبى ذخيرتها
وراع عمرك ان العمر منتهب
لسان حال الرزايا قائل : لعبى
جد فياويل قوم جدهم لعب !!

* * *

ومن يعيش ايام الحر فى العراق لا بد أن يذكر لياليها وأنفاس سحرها ونسيم فجرها ، وليل بغداد كله سحر كما يقول شاعرهم .

يقول الشبيبى وقد هبت عليه نسمات أنعشت شاعريته :

نعم الليالى التى زفت أواخرها
فهى الليالى التى اعتد من عمرى
ما احسن الليل يضفى كله سحرا
وربما عيبت الاسحار بالقصر !!

وكانت تعتريه أحيانا بعض الانقباضات فيركن الى العزلة يجد فيها علاجا له من المخالطات :

لقد سرنى أنى على الناس ملتو
ومنتبذ من دونهم بعرا
وأتعب شىء للفتى كثرة العدى
وأتعب منهم كثرة الخلطا !

* * *

وفى اطار الهابه للشاعر خاطب الشباب بقصيدة طويلة كان منها قوله :

يا شباب درسوا فاجتهدوا
لينالوا غاية المجتهد
وعد الله بكم أوطانكم
ولقد آن نجاز الموعد
أنتم جيل جديد خلقوا
لعصور مقبلات جدد
غير مجد ان جهلتم قدركم
عدد العلم وعلم العدد
واذا لم تستقم أخلاقكم
ذهب العلم ذهاب الزبد

* * *

واذا رجعنا الى ما اشرنا اليه آنفا من اسهامه فى المعركة التحريرية بالعراق أدركنا اذن معانى بعض من شعره هذا :

حب الحقيقة يصبينى وان كبرت
وزج بى حبها فى ماضفى أسد
ياقاضيا باضطهادى ، هبك تفعله
فالحق قيد لسانى غير مضطهد
قالوا : فقد سجلوها عنك صيئة
فقلت : ما دار سوء القصد فى خلدى !
مضت قرون ودالت قبلها دول
أخنى عليها الذى أخنى على لبد

وأدركنا الاهداف البعيدة لقوله :

وأكبر عار فى الاكابر صمتهم
اذا لم يبينتوا الرأى او لم يصرحوا
يقولون أقوالا ولا يفهمونها !
فان قيل هاتوا صححوا لم يصححوا !!

وادركنا معنى قوله :

على العدل فلتبك الممالك ان بنت
والا فما معنى البناء على الرمل ؟
وفى الشكل عند الغافلين تعلة
وشتان ما بين الحقيقة والشكل !!

وادركنا معنى قوله :

يسومون النفوس الظلم حتى
اذا عاتبتهم صبغوه عدلا !

وادركنا معنى قوله :

قالوا : فلان فاضل فرأيتهم
لا يحسبون الفضل الا المنصبا !!

وادركنا معنى قوله :

متى نحن نحيا او نموت سياسة
لها كل يوم مظهر متلون
خداع وكذب وافتراق وقسوة
وظلم ، أهذا العالم المتمدن ؟

وادركنا معنى قوله وهو يستغل فيضان دجلة

ليفرغ ما فى قلبه من أحاسيس ضد الذين يخنقون الحريات :

طغى الوادى كشعب احرجوه
فما احتمل الهوان ولا أطاقا !
ولما قيدوه ليستفيدوا
أبى من قيده الا انطلاقا
بربك ايها الوادى أفدنا
وعلم كيف نفتك الوثاقا ؟!

وارك قوله :

واشقى الورى من يطلب السمعى للعلا
ويمنعه صوت الجهالة أن يسعى !
اذا رام أن يستشرق الافق طائرا
هوى صاغرا ! اورام انيستوى أفعى !

* * *

وهناك أمر تكابد منه البلاد كما تكابد منه كثير من الامم ـ : الطائفية ، كل يعتز بمذهبه وكل يخذل المذهب المقابل لكن الشبيبى ـ وهذه احدى مزاياه كان يسوءه أن لا تتضافر الجهود وخاصة فى ظروف الشدة :

وأرى من الانسان أعجب ما أرى
جنسية منعته أن يتواسى
لم لا تشبه بالحقول يزينها
لطفا تجمع وردها أجناسا ؟

ومن أقواله فى هذا الصدد :

ففى آرائنا شيع
وفى أحزابنا فرق
قد استوى خلافكم
الا يا قوم فاتفقوا
فما هانوا من اجتمعوا
وما سادوا من افترقوا !

ومن قوله فى هذا الصدد قوله :

لا تجعلوا آلة التفريق دينكم
فالدين عن وصمة التفريق معصوم !
كونوا الوحدة لا تفسخها
نزعات الرأى والمعتقد

ومن حكماته المأثورة :

جل ما فى الكون بؤس دائم
ليس يقضى وشقا لا يزال !
منا يريد المرء من ثروته
ان عقباه وعقباها الزوال !

فاطرح هم حياة كلها
تبعات وتكاليف ثقال

ومن قصائده الموجهة :

والفوز فى الدنيا لمن
نبذ المخاوف واقتحم
ولمن شأى بثباته
ورسوخه الطود الاشم
ويل الضعيف نداؤه
فى مسمع الدنيا صمم !!

ومذهب الشبيبى فى المرأة لا يختلف عن مذهب جل المحافظين المعتدلين وهو يتخلص فى أنه يكفيها اى الفتاة بعد أن تاخذ بنصيب من العلم ان تقوم بتدبير المنزل فذلك بها أولى وهى به أليق ...

وأرباب الحجا لهم حقوق
بنسبتهم كربات الحجال
بتدبير المنازل هن أولى
وهم أولى بتدبير النزال
ولو كلفن جلب الرزق كانت
وظيفتهن طوع الاختلال
ومن للنشء تربية وحفظا
اذا سماوينا فى كل حال !!؟

ولا ينبغى أن يفهم من هذا أنه كان محدود الافق فى هذا الباب ولكنه كان يرى اننا اذا استمرنا فى تقليد الغرب فسنواجه حتما ما يواجهه الغرب اليوم من فقدان العنصر المهيمن فى البيت ...

* * *

واصدق شعره ما كان يهدف لتقويم خلق او اصلاح حال ، اقرأ هذه الابيات ، وهى من مختلف الجهات :

ففقير من غناه طمع
وغنى من يرى الفقر غنى !
يا عبيد المال خير منكم
جهلاء يعبدون الوثنا !

* * *

يظنون هذا العصر عصر هداية
وأجدر لو ندعوه عصر ضلالات
فان خرافات مضت قد تبدلت
حقائق الا انها كالخرافات !
واكذب عصر ما تشدق أهله
ـ على ظلمهم ـ بالعدل او بالمساواة !!

* * *

لقب النـــاس من تولـوه شيخـــا
وهـــو فى جـهـل ما يـراه صبى :

* * *

واذا تنـــازعت البقـــاء عـــوامـل
صـــح الاصـح بقاؤه والاصلـــح :

* * *

رأيت المـرء أنى زاد علمـا
تحيـر فكـره فـازداد جهـــلا
خبـــايا الكـون أكـثرها خفى
ولـــم نستجلـــه الا الاقـــلا
اذا وجد المريب بأرض جبـــن
تـولاها ، وان شجعت تـــولى !
ومن جهـل الحيـاة زواه دا.
تعضل ما استطب ولا استبـــلا

والشبيبى فى صدر الذين رددوا أصداء ظهـــور الطائرة ، وكان ذلك حدثا فوجى. به الناس أوائـــل القرن الحـالى

لم تكفهـــم بنت البخـار عجيبـــة
حتى بنوا للجـــو منهـــا أعجبـــا
حسدوا الطيور فأطلقـــوا أمثالهـــا
متصعدا هـــذا وذا متصـــوبا !

* * *

أما فى باب الوجدانيات فانك لتقرأ للشبيبى لغة حب رقيقة وعنيفة فى الوقت نفسه ، حب الفقها. الخفى القوى ، يليق بنا أن نحـــاول تذوق لغتـــه فى الحب فنستشف منها روحه المرحة وشعوره المرهق :

يشكـــو الصبابة كل يوم مـــدع
واحقنا دعـــوى لها مـــن ذاقهـــا !

* * *

جباه الذين استهجنوا الحب كزة !!
وأوجههم شر الوجـــوه الجوامد ؟!
ثنيت اليك النفس عـــن شهواتها
وجاهدتها ، ما حب من لا يجاهد ؟!

* * *

وبليتى فـــى الحب انى أينما
وجد الجمـــال وجدت أنى صبه !!
متـــواصلا يـــزورنى ويغبنـــى
حذر العـــدا فأزوره وأغبـــه
قالوا : اعتزلت الناس ! قلت : متيم
فى الحب ديدنه النفـــار ودأبه !

* * *

لا تملأوا لى أقـداحا فقد مـــلات
الى الرؤوس سقاة الحب أقـــداحى
أولى الخمارين بى ما كـــان منبعثا
عن نشوة الشوق لاعن سورة الراح !
كفتك عن وصف حالى نظرة عرضت
كم لحظة اجزأت عن شرح شراح !!

* * *

ان الهـوى الفة ما بيننـــا حسنت
يا واحد الناس فى تاليفه الحسـن
ناء عـــن العـين أهـواه ولـم أره
من أجل ذلك يهـــوانى ولم يـرنى

* * *

واشقى الهوى ما كان غاية اهلـــه
وعقباهـم منه الخـــلاعة واللهـوا
اذا نحن وازنـــا الهوى ونفوسنـا
ومقصدنا منه عرفنا الذى نهـــوى
واضعف خلـق الله عزمـــا معاتب
زمـانا به يستدرج الاضعف الاقوى
اذا فاتنى ادراك مـــا صرحت بـــه
فنون الليالى اننى مـدرك الفحـوى

* * *

مـــا حب أهـل الحب الا أدمـــع
حمر تسيـــل على شفـــاه تبسم
صدر من الاحقاد ـ وهـــى قواتل ـ
خـال وقلب بالعـــواطف مفعـــم

لكن اروع ما انشده فى هذا الصدد وامتع قوله :

وأثلج مـا بـل قلب المشـــوق
على حـــره قبـــلات الحـــذر !!

* * *

أما فى وصفه فقد نهج من سلفه فى دقـة التعبير والاعراب عن المشاعر ، وكما لهج بذكر جمال لبنـــان قريبه اذ يقول :

ياجنة الخلـــد لا عدن يماثلها
ولا يمـــاثلها فى الخلد جنات
الدهـــر عندك أيـــام محببـــة
والعمر بينـــك مهما طال ساعـــات

كذلك غنى رضا بربيع لبنان ولكـــن من غير ان ينسى بغـداده !

وما زلت يـــا صيداء الا مـــلادة
من الورد محبـوب لرائـدك النشر
وان أنس لـــم أنس منهـــا عشية
تساقط فيهـا الثلج وانبعث القـــر
وفي أرض بغداد هـــواء هي المنى
وعيش هو السلوى وماء هو الخمر !
متى خنت بغـــداد وبغداد بلـــدة
اذا رمت عنها الصبر خانني الصبر

ومجمل القول ان الشبيبي في أشعاره لم يكـــن فقط صاحب صنعة او صاحب احتراف ولكنه كـــان يعبر عن خلجات تساعد الذين يهمهم دراسة البيئـــة العراقية ومعرفتها .

جـولة في نثـــره

أما نثره فان ما وصلنا منـــه ينم عن رغبـــة في التعجيل بالفائدة للقراء ، وتلك منقبة رجال العلـــم الذين يهدفون ببحوثهم فتـــح المجـــال للآخرين كيما يناقشوا ويتحدثوا

لقد كان الشبيبي ثاني اثنين صدرا منذ سنة 1932 لكتاب الاخبار والحوادث التاريخية الذي يجهل مؤلفه والذي كان قد سمى آنذاك بالحوادث الجامعة ...

وقد عني الشبيبي بمؤرخ الشرق عموما والعراق على الخصوص عبد الـــرزاق المعروف بابن الفـوطي البغدادي (642–723) فتحدث في أول محاضرة تاريخية ألقيت بكلية الحقوق ببغداد يوم 22 أبريل سنة 1940 ، وقد كانت محاولة مهمة في التعريف بذلك المـؤرخ الفذ تبعتها عدة مناقشات وكتابات وأحاديث كان في أبرزها على ما أذكـر كلمة مسهبة عـن ابـن الفوطي للدكتور مصطفى جواد في المجلد التاسع من مجلـــة المجمع (1962) على أن الفضل كـل الفضل فـي بعث الحديث عن هذا المؤرخ المغمور يرجع للشيخ الشبيبي ... وقد تبع ذلك التقديم عمـــل جدي هام من لـدن الشيخ : ذلك قيامه المشكور بنشر تأليف مسهب في أدوار التاريخ العراقي من مستهل العصر العباسي الى أواخر العصر المغولي ركـــز فيه على سـيرة المـؤرخ المذكور بعد أن ظفر بقسم من معجمه ... وقـد نشر ذلك في مجلدين الاول يحتوي على 260 صفحة مـــن الحجم المتوسط بينما يشتمل المجلـد الثاني على 360 صفحة .. والحقيقة أن هذين المجلدين أسهمـا الى حد كبير في تنوير عقول الذين يهمهم الوقوف على معالم العراق والاحوال الاجتماعية فيه على ذلك العهد ، وهو اجدر العهود بالعناية والاهتمام .. اوليـة بني العباس ... مدارسهم الحربية ، أشهر بيوتهم واستعراض معجم ابن الفوطي ... وكتاب الاخبار والحـــوادث التاريخية السالف الذكر ... وقد كان ظهور هذيـــن المجلدين بادرة اتاحت لرجال البحث أن يشيدوا بمجهوده كما أتاحت لهم الفرصة كذلك ليتابعوا المؤلف في بعض ما ذهب اليه ، وقد كـــان في جملة مـن اطـروا على مجهوده وعقبوا عليه الدكتور مصطفى جواد .

وقد أصدر نادي القلم العراقي سنة 1958 مجموعة ضمت فيما ضمت كلمتين لرئيس النـــادي الاستاذ الشبيبي وكان قد تبوأ رئاسة النـــادي بعد المرحوم الشاعر الزهاوي ... احدى الكلمتين حول المجريطي ، والثانية حول فتح بغداد ... كما ظهر له بحث حـول التربية الاسلامية . وهو عبارة عن دراسة كان يقارن فيها بين مدرسة المغاربة ومدرسة المشارقة .. ألقاها بكلية التربية في موسمها الثقافي لسنـة 1958 وهي كلمة لا غنى عنها للمشتغل بالحديث عـن الدراسات المنهجية في الشرق والغرب .

وتفضل فبعث الى مـــن بغداد منذ 1960–1961 بمحاضراته عن أدب المغاربة والاندلسيين في أصولـه المصريه ونصوصه العربية ، هذه المحاضرات التي كنت سمعت بعضا من خطوطها الاولى في القـاهرة بمعهـد الدراسات العالية على مـــا أسلفت ، وهـــي دراسة استهدفت اولا التعريف بجزء من كتاب الخريدة للعماد الكاتب ، هو الجزء المتعلق بشعراء الاندلس والمغرب . وثانيا التعريف بأصول البحث التي اعتمدها المؤلف في هذا القسم من الكتاب ، اما الهـدف الثالث فهـو الحديث عن طائفة من شعراء المغرب والاندلس .. وقد أسهم بهذه الدراسة في التدليل على ذلـك المنصوص والتعريف بناحية مهمة من نواحي الادب العـربي ... واذا كانت هذه المحاضرات لم تثر كبير مناقشة في المشرق فانها – وهذا متـــوقع – فتحت بابا للتعليق والمناقشة في بعض الاوساط الادبية بالمغرب وأذكـر على سبيل المثال تعقيبات الاستاذ المؤرخ عبد الكريم ابن الحسني ...

وقد قرأنا للشيخ الشبيبي رحلة لـــه في بادية السماوة (قضـــاء فـي العـراق) فيهـــا كثير من الفوائد المتنوعة ، استطرد فيه ذكر كثير من المعلومات التاريخية اللطيفة .

أما رحلته الى المغرب فهي الاخرى لا تخلو من فائدة ولو أنه – كما يظهر – كان يحررها مستعجلا ، وكنت

أود لو وجد الشيخ متسعا من الوقت ليتحدث عن بلاده المغرب بأطول وأدق مما تحدث به ، والشيء بالشيء يذكر فقد أشار رحمه الله في رحلته هذه لحادثة طريفة وقعت له ببلادنا استأثرت بسرها ، لقد ذكر ان الزائر لجامعة القرويين من فاس لن يبلغها الا «**بشق النفس**» ، وشق النفس في رحلته **المقتضبة** تفصله النادرة التالية :

لقد نزلنا راجلين الى مدينة فاس صحبة المغفور له جلالة محمد الخامس لافتتاح حفلات عيد جامعة القرويين (11-10-60) ، لقد كان الشيخ الشبيبي يشكو ذات قلبه ، وصعب عليه أن يرجع راجلا صاعدا من سفح المدينة الى قنتها ، وفاس – كما يعلم ذلك زوارها الجدد – تغري قاصديها فلا يزالون يستسهلون النزول في منحدراتها ، ثم بعد أن يستمتعوا من جمالها ومن تراثها ويحاولوا الرجوع يباغتون بأن المرتقى ليس كالمنحدر وهكذا تخفق القلوب وتتفضخ الجباه عرقا !... لقد صارحني الشيخ أنه لن يستطيع أن يخطو خطوة واحدة ! وشعرت أنه فعلا عاجز عن تسلق العقبات وانضافت اليه ثلة من الطاعنين أو الذين كادوا أن يكونوا ... فحاولت أن أجرب الحصار لكنه لم يثبت على ظهره ! واضطررنا للانتظار ... واتصلت بأحد المسؤولين بالتلفون فتحدثت اليه عن ثلة من المتعبين ، ففهم كلامي أن القوم في حالة احتضار ! ولذا فقد بعث الى بثلاثة نعوش !! ومن حسن الحظ أنني انتبهت على اثر جلبة الاطفال الى أن ألقي نظرة من نافذة على ساحة الصفارين فاذا بي أرى النعوش الثلاثة !! حينا نحيت القوم واتصلت بالتلفون من جديد بمسؤول أعلى أفهمته الامر كما هو وآنئذ تقرر ارسال سيارة خاصة لحملهم ... وهكذا صعدنا ولما كنا في بعض الطريق قريبا من زقاق الحجر اذا بسيارة أخرى بعث بها جلالة المغفور له وقد كان بلغته تفاصيل الخبر : خبر الضيوف المتعبين ! كيف العمل ؟ الطريق من الضيق والالتواء بحيث يتعذر فيها سلوك سيارتين ويتعذر فيه رجوع السيارة القهقرى ... وزاد في ارتباك الامر تعلق الاطفال بالسارة والوقت وقت ظهر تعطل فيه المدارس ! ونزول السيارة في دروب فاس أمر غريب بالنسبة اليهم ! وكنت أسمع الى الشيخ وهو يهمس : « لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » وحقيقة فقد يظن أن لا مخرج من هذه الورطة الا الرضا بركوب النعوش . وهو قال غير حميد ! ولكن سرعان ما حضر الرجال فحملوا السيارة الملكية على أكتافهم ودخلوا بها دربا مجاورا وهكذا نفذنا الى فندق زالغ حيث أدى القوم صلاة الشكر لله .

* * *

ولكن هل هذا كل ما قرأناه للشبيبي ؟ ان الذي يرجع الى خزائن العراق ، الى مجلاتها الى صحفها لا بد أن يقرأ له الكثير من المساهمات ، وقد قرأت له حديثا مفيدا عن أقدم مخطوط وصل الينا من بلاد العرب لمؤلفه أبي علي الحسن بن عبد الله المعروف بنفطة من أعلام القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة ...

وقرأنا له بحثه الهام : (أصول اللهجة العراقية) الذي كان نشره في المجلد الرابع من مجلة المجمع سنة 1956 لقد وجدت في هذا البحث من الفائدة ما قرب الى فهم اللهجة العراقيه الحاربة ... وما زلت أذكر انني في مجلس من مجالس معه سألته هل كان هذا بحثه الاول والاخير في الموضوع ولكنه ذكر ان بحثه ذلك ما يزال في طريقه نحو التحقيق وكان هذا بمناسبة سؤالي اياه عن مصدر كلمة «الطرشي» في اللهجة العراقية ، وهي تعني ما نسميه بالمغرب : «المرقد» أعني بعض الخضر كالفلفل والباذنجان والقثاء الخ عندما تنقع في نحو خل ... يسمونه هناك «الطرشي» ... فأملاني بيت شعر من أغرب ما سمعته من كلام وقد جمع فيه الطرشي على طراشيشن :

ان الاناكير تاهت بعد ما تبجت
واستشرنت بعد ما كانت طراشيشا!

قال : الاناكير معناها أعذاق العنب ، وتاهت معناها اسودت . وتبجت : معناها اخضرت ،والطرشي معناه : الحامض .

وقد علمت من الاستاذ عبد الله الجبوري مؤخرا أنه حقق كتابا للفارابي يحمل اسم (احياء العلوم) .

* * *

وقد نشرت مجلة (المكتبة) التي تصدرها (مكتبة المثنى) ببغداد للاستاذ قاسم الرجب أن المجمع العلمي العراقي أصدر للشيخ الشبيبي كتابه الجديد : «تراثنا الفلسفي وحاجته الى النقد والتمحيص» وذلك بمناسبة انعقاد دورة مجمع اللغة العربية ببغداد ، وبالرغم من أننا لم نقف على هذا البحث الى الآن لكن عنوانه يدل على أن الشيخ حلق فيه وأتى بابداع مشوق .

* * *

وبعد فهل قلت عن الشبيبي كل شيء ؟ الواقع أن هناك جوانب من نشاطه وحياته تتطلب من المختصين من الذين زاملوه ولازموه ان يعملوا على نشرها ... واني

على يقين مصدره ما كان يحدثني هو به ، بأن له عدة كلمات وعدة بحوث وعدة قصائد ما تزال تنتظر منه المراجعة الاخيرة لاعدادها للطبع لكنه انهار دون أن يحقق رجاءه ، وان الامل في أن لا يعدم من تلامذته وأصدقائه من يعطفون على هذا التراث فيجمعونه ويلمونه ويقدمونه للقراء . ان الشيخ في عداد أولئك المشايخ الذين عرفناهم ممن تشعر وانت تتحدث اليهم أنهم أبناء «المدرسة» التي أخذت الان - مع الاسف الشديد - تبكي آخر تلامذتها في الشرق والغرب ، تجد في الاستئناس به ، وقلة الكلفة معه ، والاطمئنان اليه ما يحببه اليك فهو يحشي ويعقب ويحمض ويداعب يصيخ بسمعه وانت تتحدث اليه ويكتفي بادي الامر بترديد كلمة : عجيب ! عجيب ! ثم يأخذ في التعليق على ما قلته بما لا يدع مجالا للاعتقاد بأن العجب كان في عدم تسرعه وادعائه المعرفة قبلك فيما أسررت به اليه ! كان يكتفي في الاجابة على بعض أسئلتي الحرجة بضحكة يبعثها أو نكتة يرددها أو مثل يرسله ... وتلك هي لغته التي لها قاموس خاص بها يعرفه الذين أطالوا صحبته ... كان يشارك في كل حديث ويكره أن تعتبره بعيدا عن بعض الحديث ... ما رأيته يوما غير متهلل الوجه الا يوم قصدته لتعزيته في سيدته الفاضلة ... فمنذ هذا اليوم كثرت انزواءاته وتوالت انطواءاته ... وبالرغم من ملامح التعب التي كانت بادية عليه فانه ظل يشعر بأنه ما يزال يستطيع أن يأخذ الطريق لولا وفاة عقيلته التي كانت بالنسبة اليه خسارة لم يعوضها حنان بناته وبنيه ... ان اختفاء زوجته من البيت كان نذيرا مستمرا يغدو ويمسي معه - يذكره بالمصير المحتم .

أذكر أن أحد أصدقائه حذره في آخر عشاء ضمني معه بأن تناول الحلويات يزيد في مضاعفات السكر الذي كان يشكوه فأجاب الشيخ ببيت من أوائل شعره :

خذ الحذر او لا تاخذ الحذر انني
اذا جاء أمر الله بادى المقاتل !

عبد الهادى التازى

وحدة الفكر من خلال وحدة الثقافة

دعا المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي بمناسبة اجتماع مؤتمر القمة العربي في دورته الثالثة الى اقامة موسم حول وحدة الفكر من خلال وحدة الثقافة العربية) وهذا هو نص النداء الذي وجهه :

ان المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي ليبارك الخطوات الايجابية التي تخطوها شعوب العالم من الخليج العربي الى المحيط من أجل تحقيق وحدة عربية في جميع المجالات ، وأنه ليسره أن يجتمع على صعيد واحد وفي أرض المغرب العربي ملوك ورؤساء الدول العربية لجعل حد لكل ما من شأنه أن يحول دون التعجيل باقرار وحدة الوطن العربي الكبير ، **وتطبيق المبادىء المثلى التي تمليها الرغبة الجماعية في اعادة بناء القومية العربية على أسس متينة تتفق والاهداف المشتركة والغايات التي تصبو اليها شعوب العالم العربي قاطبة .**

وان وحدة الفكر لاساس لكل وحدة يراد تحقيقها في عالم الاجتماع او الاقتصاد او السياسة وهي تتبلور خاصة من خلال وحدة الثقافة العربية في جميع مجالاتها وبهذه المناسبة يوجه هذا النداء لجميع المسؤولين عن أجهزة الاعلام من صحافة واذاعة وتلفزة كما يستلهم قرائح الكتاب والادباء العرب أن يجعلوا من أيام مؤتمر القمة العربي المنعقد بالمغرب فرصة لتهيىء الجو الصالح الملائم لتحقيق الوحدة الفكرية التي ينشدها العرب والتي عمل ويعمل المخلصون في كل زمان ومكان على اقرارها بين عامة شعوب العالم العربي .

هذا وقد نظم المكتب الدائم بهذه المناسبة ندوات اذاعية ومتلفزة واستجوابات واحاديث في نطاق هذا البرنامج من 10 الى 17 شتنبر 1965 .